

خطيبتى

بقلم الأستاذ محمد السيد

حدث صديق فقال : نشأ جدى رحمه الله فى ريف مصر ذا ثروة متوسطة ، من أبوين مسلمين . وكان شغوفا بالنساء ، كلفا منهن ، غير أن مدينه والزمان والمحيط اللذين كان يعيش فيهم . كل أولئك ، ما كانت تسمح أن تكون له بالنساء علاقة أئيمة ، أو صلة غير شريفة ، وهو أبداً يحبس فى عصمته زوجات أربع ، حتى اذا مات إحداهن أو نبت عنها رغبته استبدلها بأخرى . وقد ورث عنه والدى هذه العادة ، أو هذا الداء الويل على الأصح . غير أن الزمان كان قد تغير ، وظروفه ما كانت تساعد على مجارة المرحوم والده فى هذا المضمار ، فكان يكتفى أن يستبدل زوجا مكان زوج كلما أراد ، أو عنت له رغبة . وقليل ما كان يجمع بين الاثنين — وأنت تستطيع أن تدرك كيف تعيش عائلة من متوسطى الحال ، قوامها رجل له أولاد هم ٦ أو ٧ أو ٨ أو ٩ مثلا ، مع زوج ليست أم واحد منهم : تستطيع أن تعرف هذا وتعرف ما يلاقيه هؤلاء الصبية والصغار من امرأة قضى الزمان أن تكون على شئونهم جميعا ، وهى لا تكن لهم أية عاطفة من حب أو حنان أو شفقة . بل أنت تستطيع أن تعرف ماذا تكن زوج الأب لأولاده فى أعماقها ، وما تحمل لهم فى صدرها من غل وضغينة ، وليس لهم فى ذلك من إثم ولا جريرة ، إلا أنهم كانوا أبناء لذلك الذى وإن خلقه الله على هيئة الناس إلا أنه بلا قلب خلقه .

قال الراوى : وما كانت لنا حيلة فى هذا غير مصانعة الزمان ، والنزول دائما عند مشيئة زوج أبى ، حتى اذا سكنا الى مصاحبة هذا الداء ، وألقنا هذا الشرر ما نأرجو الله بمصيبة أخرى ، وهى أنه استبدل بوجهه بأخرى غيرها ، وهكذا دواليك فلم تكن لهذا الرجل أية عاطفة نحونا كأنا لسنا أبناءه . لم يفكر يوماً فى تعليمنا أو تربيتنا ، بل تركنا هكذا كلاً مباحا ، ورعية من غير راع ، بل ونهباً مقسماً للزمان وصروفه العجيبة ، يتعلم منا من شاء ، ويلعب منا من تريد — ولا أطيل عليك . فلقد شئت أنظر الى الدنيا من خلال « عوينات » سود لا أحب .

الناس، ولكن أبغضهم، أوعلى الأقل أنظر إليهم كأنهم أعداء يريدون بي سوء، ويضمرون لي الشر، ليس لي في واحد منهم أى أمل.

وكان لي زميل مدرسة، من نعمة الله عليه أن له أما وله أبا يعيش بينهما وفي كنفهما سعيداً مغتبطاً بالحياة راض عنها كل الرضاء — وكنا نقضى كل أوقات الفراغ في منزله نذاكر دروسنا أو نتكلم ولا نلعب، فلم يكن لي إلى المرح واللعب حتى وأنا طفل أبة رغبة، فأنا دائماً محزون. وكان زميلي لطيفة قلبه يفضل الجلوس معي على أن يشترك مع الآخرين في لهوهم ومرحهم.

وكانت له أم تصلى وتصوم: وهذه المرأة الصالحة كثيراً ما شملتني بعطفها ورعايتها، فهي تعرف أني يتيم « وإن كان والدي على قيد الحياة » فهي تحبوني بما تحبته لابنها البكر من أصناف المغريات المقرحات، وفي أيام الأعياد والمواسم، تجتهد دائماً في أن أكون معهم، وكانني واحد من أبنائها — وكنت هادئ الطبع رزينا أحسب لكل شيء حسابه، أبدو عاقلاً تكلف صفات الرجال وأعمالهم، وكانت تكبر في هذا وتقدره، حتى إذا سنحت لها فرصة كانت تطرى شمائلى وتحمدلى خصالى. فأما رزين، عاقل، طيب الخلق، تمنى لو بلغت مبلغ الرجال فتزوجنى من ابنتها العزيزة « س »

وابنتها « س » هذه مؤدبة، أحسن أبواها تربيتهما، ثم حججها في المنزل لتعلم القرآن، وكانت تجيد تلاوته وترتيله. وهي دائماً في البيت لا تخرج إلا لشأن، ومع أبيها أو أمها. لم أكمل دراستى بل قطعها أبى على وألحقنى في وظيفة حكومية، فلما أصبحت ذا إيراد، ولى في الدنيا مستقبل، تهافت على الناس بعد أن كانوا عني معرضين. وهذا أبى يحترمنى الآن، وها زوجاته تتنافسان على، كل تريدنى زوجاً لأحدى قريباتها، ولكن متى كان العدو حبيباً.. ومتى كانت زوج أليك تحب لك الخير إلا أن تكون فيك طامعة؟؟

وكنت أتردد على بيت صديق الذى استمر يطلب العلم. فلما أن تلقانى أمه حتى تعيد على القصة المعلومة — فهي تحبني وتحب لي الخير كله. ولهذا، تود لو أتزوج من ابنتها (س) وأنا من جانبي أقدر لها هذه العاطفة وأدها عليها، وأرجو الله أن يوفقني لهذا، فترعم أنها اختارتني وإن كان خطاب ابنتها (بالعشرات) فهي راغبة عنهم في، فإن أكن ذا مرتب صغير إلا أننى مستقيم الحال تقي السيرة — فعلى لهذا ولأنها ستضيفني نهائياً لقائمة أولادها، فأصبح لها صهرأً. وأبناً في وقت واحد — تفضلنى — ثم هى بذلك تكون جد مغتبطة. وأما « الفلوس » فلا

أهمية لها ، والموجود يكفي أو « بلاش خالص » فهي في بسطة من العيش وسعة من الرزق .
وكان لاني رأى آخر . فانا أستطيع تحت اسمه أن أتزوج من عائلة غنية ، أو على الأقل
ابنة أحد الموظفين الرؤساء حيث بهم بن صهرى ويعمل لترقيتي في وظائف الحكومة ، فأكون
قد تزوجت وضمنت لنفسى مستقبلا سعيداً في آن واحد .

ثم تنهد صديق وقال آه . لقد كنت أنظر إلى والدى لا كأنه والد ، بل كأنه أحد الناس .
فهذا الرجل الذى ما كانت تهمة فى الدنيا الا لاذاته ، ما كان يستحق منى - كاي - أى تقدير أو
احترام . لهذا ما كنت أقبل نصائحه ، بل كنت أضيفها الى ما جبل عليه من الغطرسة وحب
الرياسة والتحكم . هذا أنى ، أما زوجتاه فقد قابلت قتراحتهما ببرود وصمت ، وأنا ولدت فى
الريف ، ونشأت كما تعلم بعيداً عن أمى ، فلم يبق أمانى اذن غير هذه التى عرضتها أمها .

رحت أفتش جوانب نفسى ، واعرض عليها ما قالت لى هذه المرأة . ثم أخذت أسائل نفسى
أمن اللازم للانسان أن يتزوج ؟ وتورطت فى لجج من البحوث والأقوال عميقة . ثم هى بالتناقض
زائخة مضطربة . وأخيراً رأيت أنه خير لى ولو نسبياً أن أتزوج ، فالزواج فى هذا الزمن ،
شر . . . ولكنه للأسف شر لا بد منه ، بهذا اقتنعت وعليه عولت .

إذن ليس ثمة ما يمنع من أن أتزوج ، فأخذت أسائل نفسى ، أهذه المرأة التى تعرض عليك
يد ابنتها وتريدك لها . . . جاً تفعل هذا عن عاطفة شريفة ؟ وكثيراً ما أجبت على هذا السؤال
بالإيجاب أو بالنفى : وأخيراً فلاأفرض أنها ما كانت مدفوعة نحوى بعاطفة خير ، بل تحب ابنتها
وترجو لها السعادة ، ومن هذه السبيل فقط فكرت فى : أليس فى هذا خيراً لى أنا الآخر ؟؟ ثم ماذا
يضرنى أنا لو بحثت هى عن سعادة ابنتها ، فالتنى أنا أيضاً هذه السعادة عفواً وعن غير قصد ؟
انتهيت إلى هذا وإلى أن لا مانع من أن تكون هذه البنية زوجاً لى من هذه الناحية
فقط ثم بعد ذلك عرض لى أمر آخر كان له من الأهمية فى نظرى الشأن الأول .

هل يجب على أن أبني بمن أحب ؟ أم أن الحب ليس شرطاً أساسياً فى الزواج ؟
أخير للعائلة أن تقوم على دعائم من الهوى وأساسات من الحب ؟ أم أن خير العائلة
فى غير هذا ؟

ولقد كان من العسير حقاً على مثلى أن يجيب على هذه الأسئلة
فما الحب ؟ وما الزواج ؟ وهل بينهما صلة ؟ وهل هى متينة أم هينة ؟ عرضت لى هذه الأسئلة
وغيرها كثير ، وأصبحت هذه المسألة أعقد من ذنب الضب . فهذه الزوجة المقترحة لم أكن حتى

وقئت ذلك قدر أيتها أوسمعتها، وأنا أستطيع أن أؤكد لك أن الإنسان لا يحب (غياًياً) وأن ذلك الشاعر الذى يقول «والأذن تعشق قبل العين أحياناً» سخيف . ولكي تتأكد ، فلتفترض أنك أحبت دون أن ترى ، ثم رأيت بعد ذلك صاحبك ، وكانت قبيجة المنظر دميمة الحلقة ، فإذا أنت صانع بحبك ؟ وماذا أنت ملاق فيه ؟ لا شك أنك تلاقى الحسرة والندامة ولا تجد إلا الحيبة والنقش . ثم مضى زمن كانت تتوارد على الخواطر السالفة . وأنا أجيب عليها إجابات تافهة ، أو إجابات سديدة . لست أعرف . حتى كان يوماً انتهت من بحثى هذا كله إلى أن علاقة الزواج وما يترتب عليها من نتائج ، وما يربطها بالحياة العامة الشاملة من وشائج ، تنتج الألفة التى قد يتولد عنها الحب الشريف الدائم الأبدى . وإذن فلا تزوج ، وبهذا كاشفت (حماتى) .

وفى ذات مساء ذهبت حماتى مع ابنها صديقى وزميل صباى وابنتها (العروس) وجارة لهم إلى المسرح ، وكانت قد أودحت إلى أن هناك يكون الملتقى . تقابلنا هناك ، وكان من حسن الطالع أو من سوءه ، أن الرواية التى تمثل فى تلك الليلة (شهداء الغرام) .

رأيت خطيبتى وإذا بها ليست جميلة ، وليست دميمة لماذا تكون زوجى جميلة ؟ لى أسعد بها أو لى أغنى بها عن غيرها : ولكن أليس الجمال فتنة ؟ وأن الجميلة قد تسبب لك آلاماً كثيرة ، ومتاعب مضنية حتى ولو من ناحية أنها تشعر بنجائها ، فتكون دائماً مدلة ودائماً متعاطمة ؟

ثم أليس الجمال بين الناس قدراً مشتركاً؟ وأنت تستطيع أن ترغم أن هذه التى تحب أو التى لك بها غنية جميلة . الخيرة فيما اختاره الله وخير الأمور الوسط .

لم تكن لدى نقود أقدم بها لهذه العائلة كزوج لابنتهم ، أو حتى كخطيب ، فطلت بضعة أيام دائم التفكير فى هذا . وأخيراً وفى ذات صباح وأنا أطلع (الصحيفة) فى طريقى للدويان قرأت فى الأخبار المحلية أن الوزارة قررت اعتبار مبدأ ماهيتى وزملاءى نحو الخمسين ، بزيادة جنهين شهرياً ، وكان من حسن الحظ أن هذا القرار انسحب على سنة ماضية . فصرفت فى اليوم الثانى مبلغاً لا بأس به ، اشتريت به (شبكة) لخطيبتى وقدمتها إليها .

ومنذ هذا اليوم بدأت العلاقات تتطور إلى تآلف ، وأكثرت من الذهاب إلى منزل أصفهارى والمكث عندهم ، وكانت حماتى تتودد إلى بكل السبل ، وتتجيب إلى تقسى بكل الوسائل . فما كانت تدع فرصة إلا انتهزتها فظهر لى عطفها وحنوها ، بل وحبها كأم ، فحمدت الله على أن عوضنى ولو أخيراً أهلاً أحبهم وأسكن اليهم .

وكانت حماتي تستعجل دائماً عمل العقد ، حتى تفرح . فمضى إلى الآن لم تجد فرصة تفرح فيها مطلقاً ، وكانت داءاً أستعجنى ، بل وتلجف إلخافاً شديداً . وتحت تأثير هذا الضغط ، اضطرت إلى اللجوء لوالدتي أستعير منها الصداق ، وانتهزت فرصة غياب والدي بالسكندرية وأتممت عملية العقد الرسمي .

لم يكن بجاني والد ولا والدة : فأسمى في البلد وأبى في الاسكندرية .. وبالأحرى لم يكن بجاني أو لم يكن لى من يرشدنى إلى ماهو الواجب فى مثل هذه الظروف . وأنا لم أكن قد تزوجت قبل الآن ، ولم يكن فى بيتنا أحد قد تزوج ، حتى كنت أستطيع أن أعرف ماهي العادات فى مثل هذه الظروف والأحوال .

ولاً أكتملك ، فأنا لم أتخف العروس بالهدايا من جميع الاصناف والاشكال كما هى عادة المصريين ، ولم أشرطها (سككا) ولا (فاكهة) ولا جوارب ، ومناديل ، أو أحذية ، أو ما إلى ذلك مما هو عادة مألوفاً وسنة مقررة . . . غير أنى أذكر أنى فى العيد أهديتها ساعة ذهبية .

كان هذا العمل من جاني بمثابة إطلاق قبلة فى صدر حماي ، فقد غضبت غضباً شديداً ، فمضى لم تزوج أحداً قبل هذه ولها صويحبات وصديقات يرغبن فى رؤية هدايا العريس والتمتع ببعضها . . . هذه أشياء لا أعرفها ، ولم أكن قد جربتها ، إلا أنها أحفظت حماي وأغضبتها ثم ازداد الغضب شيئاً فشيئاً حتى استحال إلى عدااء مستحكم ، وبعد أن كانت ترانى ابنها البكر ، أصبحت لها من ألد الأخصام . لاحظت هذا وأعترف لك أنه ألمنى وأقضى مضجعى . كانت زوجتى أو خطيبتى من جهتها لانهتم بشيء من هذا ، فمضى تقابلنى بمقابلة حسنة إذا ذهبت لمرئهم ، وإذا غبت تسأل عنى . ولقد انتقل اليها ما كانت تعمله أمها معى من قبل ، وكنا نخرج فى بعض الأحيان نترىض ، منفردين أو مع غيرنا ، وكثيراً ما شكوت لها أمها ، فكانت تختصر على أن فى أخلاق أمها شدة ، وأنها من أهل زمان ، وتطلب إلى فى إلخاف أن أنسى هذا ولا أعيره اهتماماً .

لكن كيف لآهتهم ؟ والبيت كله والعائلة كلها . . . المرأة اللعينة الممقوتة ، تتصرف فى الصغير والكبير سواء . ولقد نتج عن هذا أن وازنت بين الحال والمستقبل ، وقات فى نفسى إن هذه المرأة تعاملك من الآن بهذه القسوة فإذا أصبحت زوجاً لابنتها فأنها لاشك تستعبدك ، أو على الأقل تنفص عليك عيشك . ولكن ما ذنب هذه المسكينة ؟ كان مركز خطيبتى أو زوجتى فى غاية الدقة ، فأنا لم أبين بها بعد ، وهى لا تستطيع أن

تظهر لأمها غير مانتحب وترضى . . . ثم هى تحاول أن ترضينا كلينا فلا تستطيع . آه . . يا الله . . .
كم قاست هذه الضحية ، ضحية الأم الغبية . فى سبيل إرضائى والاحتفاظ برضاء أمها وحبها
كان والدى قد علم بزواجى وساءه هذا الخبر أيما اساءة .

وفى ذات مساء كلمنى فى هذا وفى أنى كنت غير موفق ، وأنه غير راض عنى . . وأنى
لهذا لن ألتى إلا الخيبة والندامة . ولا أ كتمك يا صديقى فلقد أنتجت معاملة حماتى القاسية أن
أصبحت كلمات والدى لى مقدسة لها فى أذنى رنين وفى قلبى الا كبار والاحترام ، وأيقنت أن
الوالد مهما قسا على ابنه . ومهما أشقاه فى الدنيا فهو على كل حال قطعة منه « إنما أولادنا
أ كبادنا نمتى على الأرض »

كانت النتيجة الحتمية لهذا أن فكرت فى شيء له خطره ، وما كان أقسى هذا الذى فكرت .
فيه وأضناه ، بل ما كان أقتله لنفسى .

وفى أصيل يوم ووقت أمام والدى فى غرفة مكتبه أطيل النظر اليه ، وهو يتلمهى عنى بمراجعة
بعض الأوراق ، وبعد فترة ليست بالقصيرة رفع بصره إلى وقال : ها أنت يا . . . ماذا عملت
مع أصحابك ؟

لا شيء يا والدى . أنا تحت أمرك يا أبى .

إذا كنت ابنى حقيقة فلا تصاهر هذه العائلة .

وكانت هذه الجملة كأنها خنجر قد صوب الى قلبى مباشرة .

ثم كيف أنخلص ؟ لقد كان ما كان . . لم أستشر أحدا ، ولم أتفاهم مع أى إنسان ...
حتى هذا الذى حرصنى لم اتبين رأيه الكامل فى القروع والتفاصيل . حقاً لقد كانت قسوة .
وفى المساء ذهبت الى (المأذون) وطلبت اليه إجراء الطلاق . فما كان اسرعه الى إيجابى ، وهو

لا يعرفنى ، حتى لقد استأجر بنفسه شهوداً لمعرفة نقدهم على شهادتهم أجراً . ثم ماذا اقول ؟
فوالله لو وكل هذا الامر الى من هم أكبر نفساً من هؤلاء لكان هذا فى خير العائلة وسعادتها .
اذن فقد طلقها ، ثم شجر خلاف امتد الى المحاكم الشرعية والاهلية ، حتى محاكم الجنح

أيضاً . ولقد ظل هذا النزاع أكثر من عشرين شهراً فى دور المحاكم ، ولست أبالغ اذا قلت إنى
تلقيت من هذه المرأة القاسية درساً أشد قسوة من هذا التقاضى الذى طال امده وتشعبت
فروعه . وأنا ما أزال فتى فى مقتبل الشباب .

واخيراً طلبنا القاضى الشرعى : أنا وهى (زوجتى) فذهبتا نحن الاثنين نبكى . ولقد كان

منظراً مؤلماً للغاية أن ترى عروسين فتيين يميكان في ساحة المحكمة بدل أن يفرحا ويمرحا في مجبوحة الأمل بالمستقبل السعيد . وعرض علينا القاضي الصلح ، ولكن بعد فوات الوقت فأبته . قائلا : لا ياسيدى لقد رحمت عحكمت الجنج ، وهذا المترافع عنى قد أهين ودست كرامته بسبب هذه . لا لا يا سيدى لم يبق للصلح باب .

فأتمت القاضي الطلاق وكان هذا فى مايو سنة ١٩٢١ وقت بالاجازة السنوية . وسافرت لبلدنا فى يونيو الذى يليه ، وبعد ايام قرأت فى إحدى الصحف الصباحية خبر وفاة المرحومة زوجتى (سابقا) فهل ترانى أودى واجب العزاء ؟
لقد أدبته !!!

تمت السيد

طامل كبيرنى

(بقية المنشور على صفحة ٧٤٤)

الامر فى نشأته على هذه الارادة الحديدية التى نذال له المستحيل . كما أستطيع أن أوكد أن لهذا الهواء الجبلى أيضاً أكبر الأثر فيما يراه بعض الناس لأول وهلة فى وجه الاستاذ كامل ، فيظنونه كبيراً ، وما هو بشيء من ذلك . واذا كان لا بد للناس من معرفته فانتا تؤكد أنه هو هذا الهواء الجبلى مضافاً الى ما فى الاستاذ من خيال الشعر المكبوح ، فان كاملانو ترك كما خلقه الله لكان شاعراً عبقرياً . ولكن ما زال يطلع على الكتب ، ويستوعبها حتى غلب عليه العلم . ولعل استعداد الشاعرى الى جهاده العلمى ، هما الذان طبعاً أسلوبه الكتابى هذا الطابع الذى أسميه . « الاسلوب البرقى » وأعني به أنه الاسلوب الذى لا أثر فيه للفضول ولا للثرثرة اللذين هما الداء المتفشى فى ادب اكابر الكتاب العصرين . إن لهذا الهواء الجبلى الذى يقع فيه الاستاذ كامل كيلانى ولهذه الفطرة الشاعرة التى خلقت فيه على أكمل ما تكون الفطرة اصفاء و نقاء ، يرجع ما فى طبع الاستاذ من رقة ووفاء وايتار ورحمة للضعفاء والاقرباء والاصدقاء والمعارف . كما يرجع ما فيه من عنف وشدة وبطش وجبروت ، على الذين يتاوتونه اللدد والخصومة — كانت ما كانت مراكرهم — وعلى المتكبرين والادعياء .

محمود أبو الوفا